سيرة الرافعي

لاحمد محمد حبش

[انما الحياة حياة الابطال . . . أو . . . عبادة الابطال] « كارليل »

« لا أقدم اليك يا صاحبي في هذه الفصول سيرة عظيم من عظماء الشرق العربي فيها ما يتشهّه الفنان من صدق العرض وحبكة القصة وطلاوة التعبير ، أو ما يعوزه المؤرخ من دقة التحليل وإحكام التعليل فحسب بل سيرى فيها الناقد النزيه البنّاء الهدّام الذي لا يخشى في الحق لومة لائم ما يتطلبه من استنباط للمقاييس والنظريات والقواعد في حنكة ودراية ثم بصيرة نافذة تقول هذا حلال وهذا حرام وتبني على ضوئها الآخذ والاحكام . . . وما ينشده من يقظة شاملة وبديهة واعية يستطاع معها القبض على الغرض وماء الخلود ، وفي جميع هذه الحالات ما أبذل جهد الطاقة — ما استطعت — في رسم صورة صادقة لعملاق من عمالقة الادب العربي — بما له وعليه — لا يخالجك الشك اذا ما تبينتها أنها صورة « السيد مصطفى صادق الرافعي » رحمة الله عليه . . .

— ١ —

في سنة ١٢٣٠ هجرية توفي عبد القادر الرافعي الكبير بطرابلس الشام الجد الأكبر للعائلة الرافعية في البلاد السورية والديار المصرية الذي يرجع نسبه الى الفاروق عمر بن الخطاب رضوان الله عليه . . . . وهو أول من تلقب بهذا اللقب من شيخه الشيخ محمود الكردي الخلوتي — أثناء زيارته له بالقاهرة — دفين قرافة مصر والمعروف مزاره ، وكانت هذه العائلة تلقب قبل ذلك بعائلة البيباري بسوريا ، وخلّف من ورائه تركة مفعمة بالنبل والفضل والمجد ... وكان آخر كلماته التي فاه بها حينما حضرته الوفاة يخاطب أولاده وحفدته « أوصيكم بالتقوى وحسن الخلق ، ومذهب الامام أبي حنيفة النعمان . . ثم مصر والأزهر الشريف » . . .

لا يولد الطفل من هذه العائلة حتى يُصب فوق رأسه الزيت الالهي . ويضمخ بالطيب الديني ويغرق الى قمة رأسه في الثقافة الدينية — الثقافة التقليدية — وتفرض عليه الصلوات ويسمى الى الفضائل بالتقليد والمحاكاة ، — وان كانت هي في الواقع تعرض امام ناظريه كل

يوم ، وبذا فهي التي تسعى اليه — فينشأ الطفل في هذا الجو « الـكهنوتي » من صغره ، يتلفت ذات اليمين وذات الشمال فلا يرى غير مراسم الدين تتلى صباح مساء وآي الله الحكيم يردّد على لسان الصغير قبل الكبير ، والأردية « الكهنوتية » تضفي عليه وتخاط له وتضفر له الأكاليل الطاهرة يزين بها مفرقيه اذا ما دخل الدار في أي وقت — سواء بالغداة او العشي — يملأ خياشيمه دخان البخور الذكي ويملأ أذنيه الأدعية والتراتيل ، في النشأة الاولى تنظم له قلائد التقوى فيحلى بها جيده وتقدم له الكأس المباركة طافحة مليئة بالماء المقدس — في الصبوح وفي الغبوق — فيشربها حتى الثمالة ، فلا غرو وهذا قانونهم ومنهجهم في الحياة ، ان تجمع الفضائل فيمن كان على شاكلتهم — في عرفهم — وان يتادوا على رؤوس الأشهاد . انهم بلغوا ذروة المجد ومنتهى الكمال ولا ضير عليهم — ما دام قانون النسبية قائماً — أن ينشدوا من أعماقهم

« اذا بلغ الفطام لنا رضيع تخر له الجبابر ساجدينا »

أجل ! فقانون النسبية الذي حدّد المقاييس والابعاد ، وجعل كل جرم من أجرام الكون يقول حقيقة هذا الشيء بالنسبة لي . . . . بدلاً من ان يقول حقيقة هذا الشيء وكفى . . . . قادر على ان يوزع المجد ايضاً ويقول لقوم هذا خير بالنسبة لكم ولآخرين هذا شر بالنسبة لكم ايضاً . . . .

***

ان هذه العائلة هي التي احتكرت « الكتابة الاسلامية » من بعد عميدها — الرافعي الكبير — واحتكرت ايضاً مذهب الحنفية فلهم قضاء الحنفية في الشام ومصر ، ولهم الثقافة التقليدية التي تقوم عليها قائمة العلوم الاسلامية — في رأيهم — ولهم المواقف المشرفة نحو الاسلام والمسلمين وهم كما يقول الاديب سعيد العريان « ورأس أسرة الرافعي هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ بطرابلس الشام ، ويتصل نسبه بعمر ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه ، في نسب طويل من أهل الفضل والكرامة والفقه في الدين ، ما منهم الا له تاريخ مشهود وجهاد مشكور ومسجد ومزار وأول وافد الى مصر من هذه الاسرة هو المرحوم الشيخ محمد طاهر الرافعي ، قدمها في سنة ١٢٤٣هـ (قريب من سنة ١٨٢٧ م) ليتولى قضاء الحنفية في مصر بأمر من السلطان ، وأحسب ان مقدمه كان أول التاريخ لمذهب الامام أبي حنيفة في القضاء الشرعي بمصر . ولم يعقب الشيخ محمد الطاهر غير فتاة وغلام ، انتهى بموتهما نسبه فليس في مصر أحد من ولده ، ولكنه كان كرائد الطريق لهذه الاسرة فتوافد أخوته وأبناء عمومته الى مصر يتولون القضاء ويعلمون مذهب أبي حنيفة حتى آل الامر من بعد ان اجتمع منهم في وقت ما أربعون قاضياً في مختلف المحاكم المصرية ،

وأوشكت وظائف القضاء والفتوى ان تكون مقصورة على آل الرافعي وقد تنبه اللورد كرومر الى هذه الملاحظة فأثبتها في بعض تقاريره الى وزارة الخارجية الانجليزية

«وقد تخرّج في درس الشيخ محمد الطاهر وأخيه الشيخ عبد القادر الرافعي أكثر علماء الحنفية الذين نشروا المذهب في مصر ، ومن تلاميذهما الأستاذين المرحومان الشيخ محمد البحراوي الكبير ، والشيخ محمد بخيت مفتي الدولة السابق »

— ٢ —

أما عبد القادر الرافعي الصغير هذا يا صاحبي فأن له صلة قوية بالرافعي — المترجم — وبينهما وشيجة لا تنفصم عراها ووراثة طبيعية لا نكران فيها ، بانت في خلقهما وفي اطوار حياتهما وفي تحصيلهما العلم وقولهما الشعر ثم في موتهما ايضاً

ولكي اعطيك فكرة عن منطق الرافعي — المترجم — اسوق لك من حديث ذلك الرجل ذكراً . . . ففي اصيل يوم من ايام الشتاء القرورة الباردة ، والرياح الموج تارة مزمجرة كآساد حبيسة في اقفاص ضيقة واخرى معولة كذئاب طليقة في فضاء غير محدود ، — اوائل القرن التاسع عشر سنة ١٢٦٣ هجرية — ، ذهب شاب في العشرين من عمره مطرور الجبين طلق المحيا صبوح الوجه تلوح على وجهه سمات النبل وأمارات الذكاء ، يفيض عافية وحيوية ، الى أبيه الشيخ وقبّل يده ووقف أمامه في خشوع وابتهال

— يا أبت أريد مصر ، قلب الشرق العربي الخافق ، مصر العلم ، أريد الازهر الشريف

— ألا يكفيك يا عبد القادر طرابلس وطنها

— العلم لا وطن له

— اذكر صبارة الشتاء وما يصيبك من ألم

— لا لا أن الشباب لا يعرف الألم

— أمك تعارض في ذلك

— لو عرفت امي قيمة العلم لما ثبطت عزمتي التي لا يعرف اليأس طريقها

— أتعصي والدتك

— ان لم اعصها اليوم فكيف اطيعها غداً

— وكيف ! ! ألا تعلم ان رضاء الأم من رضاء الله ! !

— في بعض الأحايين لا تقترن طاعة الله بطاعة الأمهات . . . .

— ان امك لا تمنعك من العلم الا لتكون بجانبها

— لا لا ! ان اكون بجانبها جاهلاً خاملاً

فضحك الشيخ ملء نواجذه علامة الرضا وقبّله في جبينه مثنى وثلاث ورباع ولم يَرُكَّنير الاذهان لمشيئة فتاه ، وسمعت الام ما دار بينهما فسابقت دموعها المطر المنهمل وجاوب عويلها نواح الريح

***

برح الفتى قريته حتى بلغ بيروت يحمل زاده وعتاده وضاع أبيه النحية — الذي ودعهُ الى المرفا ونقد الملاّح اجره ، فلاّح الذي حملها من قريتها الى بيروت — وبات ليلة بالقرب من مرفا طرابلس بمنزل صديق له استعداداً للحاقه بسفينة الفجر الراحلة للاسكندرية ، ولما قام من نومه تفقد ما معهُ من نقود فلم يجد شيئاً فتملكه الهم والغم وذهب به الحزن مذاهب شتى لاعداد لها ، وقال في نفسه « ماذا أعمل ؟ . أأرجع ثانية من حيث اتيت ؟ كي تفرح امي واحلامها الصغار ؟ . . اني لست طفلاً فلمَ تخافين عليّ يا أماه ؟ »

« ماذا يهم اذا كنت اضحيت صفر اليدين خالي الوفاض ، لا أملك غير الأمل . . . رحماك يا رباه ! » وظل يومين في نزل المسافرين لا يدري من امره شيئاً ، كان في خلالها قد لوّح له اليأس بيديه من بعيد فأشاح بوجهه عنهُ ، لكنهُ في اللحظة الاخيرة ، عانق الايمان والامل واستقبل النور نور الفجر الوليد . ذلك انهُ اقبل عليه رجل يسمى

— أأنت عبد القادر الرافعي ؟ — أجل !

— ابن حبيبي ، هاك قبلاتي ، تعال معي الى الدار !

فمضى معهُ وبات ليلة أحسن وفادتهُ فيها وفي الصباح احضر له تذكرة سفر من الدرجة الاولى فوق سفينة الاسكندرية ، وقبل ان يودعه ناوله قرطاساً وقفل راجعاً ، ففضَّ الشاب القرطاس فوجده مملوءًا بالذهب الوهاج الذي يخطف بريقه الابصار ، وسارت السفينة باسم الله مجراها ومرساها حتى بلغت شاطىء الاسكندرية ، وكانت قد مرت ببلدة موبوءة بالطاعون فحجز جميع من بها مدة لا تقل عن الشهرين يوماً ، كان في خلالها يزوره رجل من اغنياء الاسكندرية — أوصاه به ضيف بيروت وصاحب القرطاس — يقدم اليه الطعام والشراب كل يوم حتى فك أسرهم وانطلق عبد القادر يعدو نحو قطار القاهرة . . ثم الى الازهر الشريف . . . . ثم درس ونال العالمية . وولي قضاء الحنفية كما هو المفروض وظل يتقلب في وظائف القضاء ويضرب بنزاهته وعدله وحصافته وورعه المثل ، الى ان أحيل الى المعاش

وكان في شبابه يقول الشعر على طريقته هو وعلى طريقة ايامه ، ثم خلا بعد ذلك منصب الافتاء بعد الامام المصلح الكبير الشيخ محمد عبده ، فلم يجدوا من يصلح له غير هذا الشيخ الوقور ، لكنهُ في اليوم الثاني من توليه هذا المنصب الخطير مات فجأة وهو يزور أحد الوزراء وقضى الرجل وترك لابن ابن اخيه — المترجَم — الشعر والنبل والعلم والموت بالسكتة القلبية !

— ٣ —

في يوم — يوافق اول يناير سنة ١٨٨٠ — تألق ضحاه ، وحمي وطيس شمس ظهيرته ، وطاب اصيله ، وأظلم ليله — وأرعد وابرق — فجأة ، ولد المرحوم مصطفى صادق الرافعي من ابوين كريمين ، فالاب هو الشيخ عبد الرازق الرافعي ، سليل الاسرة الرافعية — تلك الاسرة التي يحق لنا ان نطلق على ابنائها « كتبة الاسلام » — واحد شيوخها الاجلاء ، تولى قضاء الحنفية كأخوته وابناء عمومته — اذ ثقافتهم واحدة — وظل يتدرج فيها حتى ولي منصب « قاضي مديرية الغربية » — أي بمنزلة رئيس « محكمة اليوم » ، وعرف بالتقوى والصلاح ، ونزاهة الحكم وسلامة الطوية واخلاصه للامة العربية وغيرته على الدين

كان إذا رأى ما يخالف الدين غضب وثار كما يثور الحر لكرامته أو اذا ما رأى باطلاً تحداه غير عابىء بما قد يصيبه في سبيل ذلك ، ما دامت وجهته نصرة الحق واحقاق الحق والأخذ بيد المظلومين

أما أمهُ فهي « اسماء » ابنة الطوخي التاجر الشهير ، وفي ذلك يقول الأديب سعيد العريان « وأم الرافعي كأبيه سورية الاصل ، وكان أبوها الشيخ الطوخي تاجراً تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام وأصله من حلب ، وأحسب أن أسرة الطوخي ما تزال معروفة هناك ، على انه كان اتخذ مصر وطناً لهُ قبل أن يصل نسبه بأسرة الرافعي . وكانت إقامته في (بهتيم) من قرى مديرية القليوبية وكان لهُ فيها ضيعة وفيها ولد الاستاذ مصطفى صادق الرافعي في يناير من سنة ١٨٨٠م إذ آثرت أمهُ أن تكون ولادتها في بيت ابيه . وكانت أم الرافعي تحبهُ وتؤثره ، وكان يطيعها ويبرها ، وقد ظل إلى أيامه الأخيرة إذا ذكرها تغرغرت عيناه كأنهُ فقدها بالامس ، وكان دائماً يحب أن يسند اليها الفضل فيما آل اليه أمره ، وقد توفيت في أسيوط ودُفنت بها ، ثم نقلت الى مدافن الأسرة بطنطا ، وقد شيعها الرافعي على عنقه الى مقرها الاخير »

وبهتيم هذه التي ولد فيها الرافعي كانت يومئذ قرية ريفية ساذجة لا تمتد اليها يد الاصلاح ولا يعرف النظام طريقها ، شأن جميع القرى المصرية ، كأن النظافة والاصلاح ما خلقا إلاّ للمدن ورفاهيتها ، دون القرى ومن فيها ، وكأنهم غير خليقين بشيء ضئيل مما انعمت به الحضارة على العالمين . . . أما بهتيم اليوم — لحسن الحظ — فهي قرية نموذجية جميلة جعلتها وزارة الزراعة مهداً للتجارب الفنية المختلفة ، وبثت فيها حياة أخرى البستها الجدة والرونق والبهاء

وكان الرافعي هو الولد الثاني لأبويه فأحباه حباً جماً ، وأظهرا له من المودة وضروب البر والرحمة عاطفةً على غرارها ، وما طبع في نفسه الحب الجم لأبنائه وحفدته ، ذلك الحب الذي يفوق العادة ، والذي يؤلف بين قلوب الآباء والابناء ولا يجعل للعدو ولا للشيطان ثغرة ينفذ

من خلافها بينهم ، وهذا هو السر الذي جعل من الرافعي الشيخ ذي الهالة الكبيرة عيناً — تسح دائماً — باكية أمه التي اختطفها الموت وهو ما يزال في ريعان الشباب ، وهو السر الذي تراه في دموع أبناء الرافعي تلك الدموع التي لا ترقأ ولا ينقطع سيلها اذا ما خلا مجلسه أو ذكرت أعماله الصالحات الطيبات

ولكن الرافعي نشأ لا يسمع غير القرآن . أو ما يقرب من القرآن . فانطبع في نفسه ذلك البيان المشرق وارتسمت على مخيلته صور العربية الاولى — لفخامتها وجلجلة اجراسها — العربية الفصحى ، العربية التي استطاع بها أن يكتب « اعجاز القرآن » « وتحت راية القرآن » وبدافع دفاع المستميت عن العربية وعن لغة القرآن ولما بلغ السادسة من عمره بعث به أبوه الى الكتّاب تعلّم مبادىء القراءة والكتابة وأخذ في حفظ القرآن ، وما جاءت سنةُ العاشرة حتى استظهره عن ظهر قلب حفظاً وتجويداً ، وكان في سني طفولته لا يعرف الكذب اطلاقاً ولا يظهر امام أبيه الا بمظهر عن طاعته وصدقه فسماه « الصادق » وبذلك سمي مصطفى الصادق

***

ان البيئة والوراثة أثراً بيناً في تكوين اخلاق الطفل وفي توجيهه ، وفي غرائزه ، فالطفل هو ذلك الملهم الذي يطبع — لاول وهلة — على مخيلته الصور التي تلعب ادوارها أمامه ، ثم يحيلها الى دعائم تقوم عليها نوازعه من بعد ، شأن العالم أو الاديب المثقف ، الذي يختطف المفارق خطفاً ، ثم يحيلها في معمله إلى صور مختلفة الاشكال متباينة الالوان ، ويجعل من اللمحة الخاطفة ، او الجرعة الصغيرة هيكلاً ضخماً فخماً ، قوي البناء متين التركيب ، تجري في عروقه دماء الحياة

فقد كان الرافعي الطفل — يوم أن كان في الكتّاب يدرس القرآن مع لداته — هو ذلك الحاكم العادل — في عرفه هو يومئذ — المسرف في حكمه ، الغاضب لحق الآخذ بناصية الظلم ، الشديد في حكمه الى درجة الاغراق او الاسراف ، الذي يخرج الشيء عن طوره ويجعله يتعدى دائرته التي خلقت له وخلق لها . ذلك أنه كان لا يعرف بينهم إلا « بابن القاضي » فاذا ما شجر خلاف بين طفلين فلا يحتكمان إلا اليه

— يابن القاضي ! هذا الولد ضربني بكفه مرة واحدة

— بدون سبب ؟

— أجل !

— فليضرب بالعصي الغليظة ، مثنى وثلاث ورباع !

ثم يقبل عليه آخر

— يا مصطفى ! لقد سرق مني هذا الولد ، القلم والمحبرة

— لنُقطِّعنّ يده !

ثم يجيء ثالث

— يابن القاضي . هذا اللعين سب ديني

— دين الاسلام ؟

— نعم !

— لنحرقنّهُ ولننسفنّهُ في اليم نسفاً !

وما كان يحول بين تنفيذ هذه العقوبات الصارمة المفرقة المسرفة غير تدخل العريف «يامصطفى خلّ شيك هذا فأني أولى بتأديب الاولاد منك » ... وهكذا دواليك . . . مما يرسم لك صورة حية من اخلاق الطفل ومن تأثير البيئة في نفسه وطبعه بطابعها الخاص ، فقد اخذ أبوه مرة بتلابيب رجل مسلم يدخن لفافته ظهر يوم من ايام رمضان في الشارع العام ليقيم عليه الحد الشرعي

وهكذا نشأ الرافعي — على غرار أبيه — يغضب للحق غضبة مضرية ، وينتصر له ابنا كان وحيثما كان . . وكان يصيب تارة ويخفق أخرى . . وكان اخفاقه نتيجة اعترافه دائماً الامر الذي اصاب معهُ التوفيق في « إعجاز القرآن » و « تحت راية القرآن » والدفاع عن لغة القرآن والاخذ بيد المستضعفين من ابناء لغة القرآن بأناشيده الحماسية التي كان فيها نسيج وحده ، تلك الاناشيد التي ارسلها من صميم فؤاده في عاطفة مؤججة ، وقالب عربي مبين ، فكانت اناشيد القوم — العرب — اذا ما حزبهم امر او وقف العدو لهم بالمرصاد

أما اخفاقه ففي كثير من « على السفود » ثم في كثير من نقداته المرة ولذعاته الحارة التي كان يصيب شواظها الرؤوس والاجسام والتي كان يرسلها حراء هيجاء يصيب بها من يشاء من خصومه مما ستراه في موضعه تفصيلاً وتحليلاً ان شاء الله

***

لم يتجاوز العاشرة الاّ بقليل حتى بدأ في تأملاته ورحلاته ، تأملاته في عجائب الكون وحسن تنسيقه وروعة جماله ، ورحلاته الى اقصى حقول « دمنهور » حيث كان ابوه ما زال قاضياً بها — ليجتلي سحر حقوله الهندسية المنبسطة وزرعه الاخضر الجميل . . . . فالجداول ضاحكة رقراقة ، والاشجار حالمة والطيور باسمة والنسمات بليلة والآصال جميلة ، والاثمار اليانعة والرياض المترعة والحدائق المبدعة والنخل باسقات لها طلع نضيد

يخرج من دار ابيه في صباح يوم الجمعة من كل اسبوع هو واخوته وأخواته ليتنزه في المدينة ، فيفلت منهم ويسم وجهه شطر الحقول البعيدة فيظل هائماً بها — طوال اليوم — كالانبياء القدامى متأملاً خاشعاً مطأطىء الرأس امام ذلك الجمال اللانهائي والذي لا يدري من امره شيئاً

هذه هي أفياء الصافية الأديم ، وتلك أشجار التوت الكبيرة الوارفة الظلال ، وهذا الغدير ينساب من تحتها في رفق ولين انسياب نسمات الأصيل في أجوائها الخالصة ، صافياً صفاء النفس الطاهرة ، مشرقاً أشراق ومضات الروح المتحرر من القيود ، وهذه هي العصافير تتنقل فرحة مرحة طائرة هنا وهناك ، كأنها هي الأخرى شاعرة سكرى تبحث عن جمال الله في الآفاق

كل ذلك ملك على الفتى مشاعره ، وجعله يعبد جمال الريف ذلك الجمال الخالص من كل شائبة ، يبعده بعيداً عن زيف المدنية وباطلها بعيداً عن اخوته ورفاقه الذين يصيدون العصافير ويقتلونها بنبالهم في الوقت الذي يكتفي هو فيه بصيد الأسماك من البركة ذات الماء الشبم ، التي تشبه السماء في صفائها وزرقتها او من النهر الصغير او الجدول النمير ، لا يبتغي من وراء ذلك غير اشباع روحه ومتاع نفسه . قائلاً لرفاقه « ايها السفاكون كيف تقتلون العصافير .. ايها الأغبياء .. ان الجمال ليس له أن يقتل على هذه الصورة البشعة المنكرة . حقاً انكم لجاهلون ! » ويكون جوابهم « ايها المجنون اليك عنا ، اليك عنا ! »

لم يكن هم الفتى يومئذ ، غير الدرس والحفظ والتجويد .. — ولو انهُ انتظم في السنة الاولى من المدرسة الابتدائية الاميرية — الدرس درس النحو والصرف ومبادىء الفقه . والحفظ ، حفظ كتاب الله وتجويده ، وترديد آياته وتفهم معانيها . . . وكان يعاني في ذلك مشقة كبيرة وألماً ، الأمر الذي من أجله ضعف سمعه وصدره كما سيأتي تفصيل ذلك في موضعه ، وهنا ينتهي الشطر الاول من حياته ، وهو في نظرنا أهم شطر منها ، وكان لنا من طفولته وحوادثها الشيء الكثير لو ان المرحوم الرافعي عني بتدوين حوادثها ، او كتب عن طفولته بنفسه ، أو ذكر لنا أهم الحوادث التي اعترضت هذه الطفولة الساهمة الواجمة دائماً والتي ما كانت تعرف الضحك او اللعب ، بل التي عليها الحمل وهي ما زالت تحبو — وكلفت عناء الدرس في مقتبل العمر ، وقبل ان تتم مباهج الحياة . . . .

أجل : كان لنا في طفولته مخرج نخرج منهُ بتعليل بعض ما أبهم علينا من غامض خلاله وأثر الطفولة وخلالها في نفسه — الى يوم موته — . . ولكن للأسف ليس أمامنا ما نعتمد عليه في هذا المقام الا النزر اليسير . . وجل اعتمادي — في بعض الحوادث — يا صاحبي على القياس والمنطق والتعليل والتحليل — اذ الصور تدفع بعضها بعضاً — والمترجم الحق في استخراج صوره التي يريدها — في مثل هذه الحالة — من الحوادث التي أمامه ومثله كمثل الباحث عن قليل من الذهب بين ركام من الرماد

— ٤ —

بعد ذلك نقل الشيخ عبد الرازق الرافعي قاضياً بمحكمة المنصورة الشرعية وانتقلت معهُ اسرته ومنها الفتى « مصطفى » ، الذي لم يبلغ الثالثة عشر ربيعاً بعد ، فالتحق الفتى بالمدرسة

الابتدائية الاميرية، وكانت اللغة الفرنسية هي اللغة الاجنبية التي تقرر الوزارة تدريسها ، فأكب الفتى على دروسه ولازمه النجاح طوال سني الدراسة وحصل على الشهادة الابتدائية بتفوق

ومما هو جدير بالذكر ان « الرافعي » — الفتى — قد بز أقرانه في اللغة العربية وعلوم النحو والصرف الى درجة ادهشت زملاؤه ومدرسيه ، ثم اضعفه في اللغة الفرنسية الى حد كبير ، مما لازمه طوال حياته ، ومما جعله ينسى الفرنسية تماماً ويكاد ينساها لعدم انتفاعه بها انتفاع الاديب المثقف الذي يستمد زاده من روافد الادب العربي عامة والادب العالمي خاصة ، ذلك الزاد الدسم الذي لا يمكن الحصول عليه الا باحدى اللغات الغربية التي هي مفتاح هذا الادب الواسع — العريض — الثراء . . . ولو ان عندنا ترجمة شاملة للعلوم والآداب الرفيعة ، لانتفع الادب العربي — والاديب العربي — بذخائر الادب الغربي ، ووقفنا على مناحيه الثابتة ومذاهبه المختلفة وسهل التلاقح بين الادبين وأثمر الادب عندنا ثمره المرجو واستطاع في يوم قريب ان يقف بجانبه موقف الند للند لا موقف القزم الحقير ، امام العملاق الجهير . أما تفوقه في العربية والنحو والصرف فيرجع الى استظهاره القرآن ، ثم الى دروس ابيه الذي ما كان ينفك يدرسه ليل نهار علوم البلاغة والنحو والصرف حتى بلغ مبلغه فيها وقطع شوطه ذلك الشوط البعيد

اما سلوكه في المدرسة الابتدائية مع اساتذته فسلوك الطالب المستقيم الحافظ للحقوق والواجبات ... اما مع زملائه من الطلبة فوقف المتعالي الشامخ بأنفه كبرياء وصلفاً الذي كان كثيراً ما يبرم «ما هذه العجمة التي في السنتكم وما هذا العي الذي يلازمكم وما هذا الهذر الذي به تنطقون» ؟ ! . . . . وكان هذا ديدنه — رحمة الله عليه — الى آخر لحظة من حياته المليئة بمواقف الرجولة والكفاح والجهاد

— ٥ —

لما حصل الفتى على الشهادة الابتدائية اصابه مرض التيفود فلازم فراشه شهوراً وما برىء منه إلا بعد ان برىء منه سمعه — او كاد — فراح يطلب علاجاً عند الاطباء فلم يجد — رغم طول السعي — من دواء يشفي الى آلامه الممضة ويدرأ عنه عاهته النازلة بساحته وتريد أن تحتل من اذنيه وطناً ومقاماً . وفي ذلك يقول الاديب العريان « واخذت الاصوات تتضاءل في سمعيه عاماً بعد عام كأنها صادرة من مكان بعيد ، أو كأن متحدثاً يتحدث وهو منطلق يعدو . حتى فقدت احدى اذنيه السمع ، ثم تبعتها الاخرى ، فما أتم الثلاثين حتى صار أصم لا يسمع شيئاً مما حواليه ، وانقطع عن دنيا الناس وامتد الداء الى صدره فعقد عقدة في حبال الصوت كادت تذهب بقدرته على الكلام ولكن القدر اشفق عليه ان يفقد السمع والكلام في وقت معاً ، فوقف الداء عند ذلك ، ولكن ظلت في حلقه حبسة تحبل في صوته

رنيناً اشبه بصراخ الطفل ، فيه عذوبة الضحكة المحبوسة استحيت ان تكون قهقهة . . . » :

غير اني أرى ان اصابته بالصمم لم تأت مرةً واحدة — عقب التيفود مباشرةً — بل تدرجت شيئاً فشيئاً حتى بلغ الثلاثين لانهُ لم ينقطع عن التعرُّض لضربات برد الليل يوماً طوال هذه العقود . . . والداء اذاً سبق هذا التاريخ . ذلك انهُ حدثني الدكتور نبوي الرافعي — شقيق الرافعي — « ان المرحوم مصطفى كان يقوم كل ليلة من نومهِ مذعوراً — وهو في سن العاشرة — كما سمعت من ابوي ، ليحفظ الواجب اليومي عليهِ من القرآن ويستظهر بعض النصوص الادبية » . . .

ولانهُ كان يكره الحر الشديد ، ولا تحمل اعصابه الثائرة لوافحه كان يذهب الى الدهليز مباشرةً دون غطاء على صدره واذنه ، اتقاء لسمات البرد ، اذ كان من حدب امه عليهِ ان تثقل عليهِ الغطاء حينما ينام خيفة عليهِ من البرد . فكان اذا شعر بالحرارة تدب في جسمهِ قام مذعوراً وخرج يقابل البرد ، وفي ذلك ما يعرضه لضربات البرد القاتلة ، تلك الضربات التي بعثت الداء الى اذنيه — في بطء — وساعدت الداء ان لم تكن هي السبب في الداء ، وجعلت التيفود يصيبها في الموضع القتال ولا يتركها الاَّ في النزع الاخير .

ربَّ سائل يقول « اذا كانت يد البرد قد امتدت الى الاذن فلمَ لم تمتد الى الصدر ايضاً وتوهنهُ وتبعث فيهِ السأم والكلال . ولماذا نجا من صدره دون اذنيهِ ؟ »

فجواب ذلك : لقد تلاشى هذا الضعف ، ضعف صدره ، بمزاولة الالعاب الرياضية واصبح هذا الجسم الضاوي النحيل ، على مر الايام . قوياً مفتول العضل ينبيء عن حيوية دفاقة وعافية متجددة ذات ماء نمير . اما اذنه فلن يداويها ... لقد كان الطب في مصر من ثلاثين عاماً — خاصة طب الاذن والحنجرة — غير موجود بمعناه الحقيقي ، وكان من السهل مداواة هذا المرض بادىء بدء لو ان الله قيض للرافعي المسكين ما يذهب عنه هاته السقام ....

وقد شاءت المقادير ان يكون القرآن واللغة العربية ، وهما اول شيء تمكن منهما الرافعي واحبهما كل الحب ، هما السبب المباشر في اصابة الرافعي بالصمم ، والصمم بدوره هو الذي مهد للرافعي طريق المجد ، طريق الخلود . فلولا الصمم ما انقطع الفتى المدل التياه — وهو في سن الشرف — عن اهله ودنياه كي يقطع — في مرحلة صغيرة — هذه المراحل البعيدة التي من الصعب على حدث ناشيء مثله ان يقطعها ، ولما قنع بوظيفة صغيرة لا يملك من ورائها حولاً ولا طولاً وفي وسع اسرته ان تدفع بهِ الى كبرى الوظائف دون مشقة او عناء

***

ما هذا النقص الذي تلافاه الرافعي في حياته وانقذ صدره دون اذنه ؟!

اجل ... كان الرافعي يسكن مع اسرته في طنطا ، في اول عهده بالوظيفة ، وذات يوم وهو عائد الى طنطا، بينما كان يتماشى مع بعض زملائه الكتبة امام محطة طلخا اذ ابصر برجل غليظ القلب يوسع غلاماً مسكيناً ضرباً مبرحاً فرقّ له قلبهُ وانقض على الرجل بعصاته ولم يتركه حتى ترك الغلام ، ولولا ان جاء القطار وحيل بينهما لاشتبك الرافعي مع اسرة الرجل ، شيخ البلد ، صاحب السلطة والسلطان والحبل والجلمان . وركب الرافعي القطار والرجل يتوعده ويتهدده ، والرافعي يلوح له بعصاته حتى غاب القطار عن الانظار ، وغداة غدٍ احتل الرجل محطة طلخا هو واسرته في انتظار ذلك الافندي « المهزول » الذي بلغت به الجرأة ان يضرب عائلهم بالوتود ولولا وساطة اهل المروءة وزملاء الرافعي ما كنا نعلم ما يصيبه من نتائج هذه المعركة التي كان فيها الغلبة للخصوم

ومن ذلك اليوم والرافعي يسعى في ملاقاة نقصه وضعفه بمزاولة الالعاب الرياضية تلك الالعاب التي حرص عليها من ذلك اليوم حتى يوم موته ، والتي بلا صنوفها كلها من عدو وقفز وملاكمة وحمل ما يزيد عن ثلاثة كيلو جرام من الاثقال ! . وكان في هذا كله السابق المجلي !

***

لما حصل على الشهادة الابتدائية سعى له أبوه حتى عين كاتباً بمحكمة طلخا الشرعية وكان ذلك في إبريل سنة ١٨٩٩ بمرتب شهري قدره أربعة جنيهات ، لكن هذا الشاب المريض ، وذلك الفتى الفرانق الذي قارب السابعة عشر المزهو بشبابه وعلمه وحياة اسرته رأى ان في هذا التعيين استصغاراً لشأنه واذلالاً لكبريائه

— يا أبتِ كيف اعين كاتباً بسيطاً واخي الكامل تعين مأموراً للمركز ، يأمر وينهى ويحكم حسبما يشاء ؟ !

فدنا الشيخ عبد الرازق من اذن ولده المختال في بردته خيلاء وعجباً وصاح :

— اسمع يا مصطفى . . انسيت ان في اذنيك وقراً ؟ واتك انت الذي اخترت هذا لتفرغ لدرس القرآن والشريعة الغراء وتوسع في علوم البلاغة والعربية ، وتتفقه في الدين والمذهب ، وتسمو بما اوتيت من فصاحة لاستكمال ما نقص منك كي تكون لساناً زلقاً ذرباً يدفع ملمة ويدرأ عادية ويقهر عدواً

— ولكن يا . . — ولكن يا مصطفى انت الذي اخترت وتعلمت وخلقت يا بنيّ لتجاهد في سبيل الله « وما الحياة الدنيا الا لعبٌ ولهوٌ وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور »

— فاقتنع الشاب بمقالة أبيه وسمع ووعى . . . . ونقش في ذاكرته الآية « خلقت لتجاهد في سبيل الله » . . وصادف هذا البث ، وهذا الايعاز وهذا الاشعار بالعظمة وهذا

الايحاء بالحد في نفس الفتى سكاناً خالياً . . . « وصادف هواها قلباً خالياً فتمكنا » ! ! . . .

ومن يومها وهو يريد ان يحقق ظن ابيه فيه ، وقد ظن انه اخذ على الدهر ميثاقاً ان يتحدث بعاطفة صادقة ملتهبة ، — ولو كان في ذلك حتفه — اذا ما اراد ان يرد فرية دخيلة على الدين او يفحم عدوًّا العربية والاسلام ، ذلك ان هذا العدو هو العدو المبين !! . . .

— ٦ —

لماذا اراد الرافعي ان يُمضّي في طلخا ؟

الجواب ستعرفهُ من تلقاء نفسك ياصاحبي بعد قليل . . . . اذا ما التمست له العذر وتبينت شغف الرافعي بالمنصورة اثناء الدراسة ، ذلك الشغف الجدير بكل نفس شاعرة تعشق الجمال في احسن صوره واروع مناحيه . . .

فجمال بلها الاخاذ ، وسحر جسرها العجيب ، وروعة الظباء في غدوها ورواحها وفتنة الحسان في خطراتها ولفتاتها ، وجمال عرائس الشط القافات كعمد من المرمر يسبين العقول ويأسرن القلوب والالباب ، المرسلات شعورهن كأنهن جنيات البحر وقفن يجتلين سحره بنية الارتقاء بين احضانه ورشف رحيقه الكوثري السلسبيل ! !

أرأيت الى النيل في الفجر وقد غلفته الانداء المعطرة بغلائل من سحب تُزجيها افانين السحر تارةً وأخرى تحضنها امواه الجمال . . وقد استحال البحر الى معبد — اشبه بمعبد ابولون — عبق دخان مجامره اجواء الافق الغربي والساحل الشرقي وطابت الصلاة عن كثب منهُ على صوت المزامير ، مزامير البلابل الشادية — لاخدان الحقيقة وابناء الخيال على السواء ! ! !

أرأيت الى الفجر وقد خضب الشفق الغروب بدمه الاحمر القاني صفحته فأضحت كأنما لوّثت بدم الشهداء . . . او خرجت بدمع المحبين ! !

أرأيت البحر في الامسية الرخية وقد انعكست على صفحته اللألاءة انوار المدينة الغرق في احلامها فاستحالت الى معبد من فضة قامت تحمل مناسك ومحاريب يصلي فيها لآلهة الحب وارباب الجمال الشعراء والملاحون والعشاق المناميد ! !

أرأيت الى مغاني الحب ؟؟

وحدائقه الغلب ؟؟

وكل آسرة للقلب ؟؟

وكل آخذة بالب ؟؟

ما احيلاك . . .

يا ليالي الصب ! ! !

« لها بقية » احمد محمد عيش